الإمام علي عليه السلام

الإنسان الكامل في مقابل ذهنية الإنحطاط



باسم الماضي الحسناوي

الفهرس



مقدمة

قال الله عزَّ وجلّ: {إِنَّمَا وَلِيُّكُم اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمْ الْغَالِبُونَ}

وقال عزَّ من قائلٍ: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}

وقال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهمَّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: غدًا ترون أيامي، ويُكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلوِّ مكاني، وقيام غيري مقامي.

يتحدَّثون عن الغدير حديثاً تقليدياً في العادة قوامه سرد مصادر الحديث في الكتب المعتبرة وما إلى ذلك، لكني أريد ها هنا أن أخالف هذا الأسلوب، لأنه لم يعد منتجاً في رأيي، بل عاد مستهلكاً وممجوجاً في نظر ذوي الثقافة والفكر من الشباب وغيرهم على وجه الخصوص.

ماذا نقول؟

نقول إنَّ الناس كانوا بحاجةٍ إلى التربية الروحية والدينية بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنَّ عليّ بن أبي طالبٍ هو الرجل الذي اجتباه الله سبحانه لأداء هذه المهمَّة، وقد تأخَّر تقدُّم البشرية عموماً والمسلمين خصوصاً لأنَّ الناس لم يستوعبوا الأطروحة الإلهية باختيار عليّ بن أبي طالبٍ لخلافة النبيّ، فقدَّموا عليه من هو أقلُّ علماً ومقدرةً على أداء المهمّات الرسالية، أو قل إنهم قدَّموا أناساً نظروا إلى فضائل عليّ بن أبي طالبٍ فضاقوا بها ذرعاً، وشاؤوا أن يبعدوها عن ساحة العمل والتأثير حتى وإن كانت تؤدِّي إلى خير الناس أجمعين، فما دامت المصالح الشخصية مهدَّدةً بهذه الفضائل التي تنفع الناس عامةً، فهي فاقدةٌ للقيمة في نظر الإنتهازيين، بل يجب أن تُحارب بكلِّ ما أوتوه من أسباب الحيلة والقوة والمكر بطبيعة الحال.

لقد كشف أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه المحنة عندما تصدّى لقيادة الأمة بعد حادثة قتل عثمان، فخاطب الناس بقوله:«ألا لا يقولنّ رجالٌ منكم غداً قد غمرتهم

الدنيا فامتلكوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيل و اتّخذوا الوصائف المرقّقة، إذا ما منعتهم ما كانو يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: حرمنا ابن أبي طالبٍ حقوقنا، ألا و أيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول اللهّ يرى أنَّ الفضل له على سواه بصحبته، فإنَّ الفضل غداً عند اللهّ. فأنتم عباد اللهّ، و المال مال اللهّ، يقسَّم بينكم بالسويّة ولا فضل فيه لأحدٍ على أحد».

صدِّقوني لم يكن أحدٌ ليمانع أن يكون عليٌّ عليه السلام هو الخليفة بعد النبيّ مباشرةً لو أنهم فقط أمنوا من الإمام عليٍّ أن يترك هذه السياسة، فلا آيات السماء ولا أحاديث الرسول في الغدير او غير الغدير بالتي تجعلهم يقدِّمون الكفء على غير الكفء إلا أن بتنازل هذا الإمام الكفء عن منطق العدل الصارم ويلبِّي الطموحات الشخصية لذوي الفاعلية والتأثير في تحريك ماكينة السياسة.

المدخل إلى دراسة أمير المؤمنين عليه السلام

إذن من هنا يجب الدخول إلى دراسة عليّ بن أبي طالب، ومن هنا أيضاً يجب أن نفتح نوافذ الإستفادة للأجيال البشرية من هذه الشخصية الإلهية الإستثنائية العظيمة.

بناءً على ذلك، فإنَّ أغلب السياسيين اليوم سوف يتآمرون على عليّ بن أبي طالبٍ في حال عودته، لأنه سيحرمهم من هذه البيوت الشاهقة، ويرجِّلهم عن السيارات المظلَّلة، ولا يقرُّ لأفضلهم من الأجر إلا ما يتسلَّمه أيُّ موظَّفٍ عاديٍّ في نهاية كلِّ شهرٍ، بعد أن يتكفَّل له بكلِّ مستلزمات العمل بطبيعة الحال.

إنَّ أهمَّ الدروس التي يمكن استخلاصها من مدرسة الإمام عليٍّ عليه السلام هي تلك الدروس التي يتضايق منها أغلب الأتقياء اليوم، بمجرَّد أن تكون لهم صلةٌ ما بالعمل السياسيّ من أيِّ نوعٍ، وما ذلك إلا لأنَّ تشيُّعه لهذا الإمام ليس تشيُّعاً مدروساً في الحقيقة، بل هو تشيُّعٌ موروثٌ لا فضل له فيه مطلقاً، فلو ولد في مجتمعٍ لا يقيم وزناً

لولاية علي بن أبي طالب لكان يتعصَّب لمعاوية كما يتعصَّب لعليٍّ عليه السلام الآن، لأنَّ التشيُّع المدروس يحتِّم على صاحبه اعتناق معتقدات الإمام الدينية والسياسية والإجتماعية .. إلخ، أما لو أحبَّ علياً مثلاً، وصدر في آرائه وقراراته وما إلى ذلك من السيرة المقابلة لأعدائه، فأين يُحشر مثل هذا الشخص في رأيكم إلا في طابور أولئك الطواغيت الكبار من أعداء عليٍّ عليه السلام.

إنَّ من لا يقدِّرون منهج الحقِّ والعدل والإستقامة في السياسة، لهم أساليبهم في إقصاء الكُمَّل من الناس في كلِّ العصور، وقد تجلّى هذا المعنى في محنة أمير المؤمنين أكثر مما تجلى في محنة أيِّ إنسانٍ آخر في التأريخ، وهذا ما تكشف عنه الخطبة الشقشقية الشهيرة، فإذا ذكر الإمام ذريعة الخليفة الأوَّل في تسنُّم الخلافة، مع علمه أنها لعليٍّ خاصةً، وهي الشورى، فقد قام بتفنيدها بمختلف الحجج والأدلة النقضية والحلية في المناسبات المختلفة، وهي معروفةٌ للجميع، ذكر بعدها أنَّ الإنتهازيين سرعان ما ينقضون مبدأ الشورى نفسه، بعد أن كان حجتهم الوحيدة في التجاوز على الحقّ، فمن المعلوم أنَّ

الخليفة الثاني تسلَّم الخلافة عن طريق الوصية والعهد من الخليفة الأوَّل، وليس بالشورى كما يتوهَّم البعض، ومع ذلك لم يستقروا على المبدأ الجديد، فقد نقضوه أيضاً ليعودوا إلى مبدأ الشورى وفق صيغةٍ معدَّلةٍ تخدم أغراضهم، يقول الإمام: «حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ – يقصد الخليفة الثاني- جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَلَّهِ وَ لِلشُّورَى مَتَى اِعْتَرَضَ اَلرَّيْبُ فِيَّ مَعَ اَلْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ اَلنَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ اَلْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ اَلْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَ مُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اَللَّهِ خِضْمَةَ اَلْإِبِلِ نِبْتَةَ اَلرَّبِيعِ».

إذن عادوا إلى المبدأ الشورويّ أو الديمقراطيّ من جديدٍ، لكن وفق هذه الصيغة المعدَّلة كما قلنا، وهي أن تكون ضمن جماعةٍ محددةٍ بعددٍ معيَّن، وهم يعلمون أنَّ الأمور سوف تنتهي إلى غايةٍ يريدونها لا غير، فليطمئنَّ الجميع لأنَّ منهج القسطاس المستقيم سوف يكون خارج دائرة الحكم في نهاية المآل.

انتهازية الديمقراطية

إنَّ بإمكان الإنتهازيين المسيطرين على مقاليد الأمور اللعب بالأوراق بالطريقة التي يشاؤونها، حتى الديمقراطية فإنها أسوأ الأنظمة على الإطلاق في المجتمعات التي لا يمتلك فيها أفراد المجتمع تربيةً روحيةً ووعياً عالياً، فإذا كان المجتمع بالإضافة إلى ذلك فاقداً للقدرة على اتخاذ القرار المستقلّ، فإنَّ الطامَّة ستكون أدهى طبعاً، ولهذا فإنَّ علياً عليه السلام أقصته الديمقراطية من الحكم، ولم ينتخبه من الصحابة إلا أربعة أشخاصٍ لا غير، هم المقداد وعمار وسلمان وأبو ذرّ، وكان للآخرين إراداتٌ بعيدةٌ عن اختيار الإمام للخلافة على أية حال.

ألا تعساً للديمقراطية عندما تكون باباً لإقصاء عليّ بن أبي طالبٍ من الخلافة، فمن كان شامخاً في دينه وأخلاقه وعلمه وشخصيته كعليّ بن أبي طالبٍ فهو فوق الديمقراطية والديمقراطيين في جميع الأزمان.

لقد كانت نتيجة الديمقراطية التي ارتقى عثمان منصة الحكم على أساسها مأساويةً بالفعل، فلقد بلغت أموال بعض خاصَّته وأقربائه حداً أنهم كانوا يكسرون معه الذهب الذي في حوزتهم بالفؤوس، مع أنَّ الملايين من الناس في المدينة وسائر الأمصار لا يجدون قرص الشعير، ولكم أن تتخيلوا ظلم الولاة على ولاياتهم وما يصحب ذلك من الأوضاع المتردِّية على كافَّة الأصعدة.

ثمَّ كانت نتيجة هذه الديمقراطية التعيسة أن يُنفى أبو ذرٍّ ذلك الصحابيّ العظيم إلى منطقة تمتاز بأوضاعٍ بيئيةٍ قاهرةٍ وهي الربذة ليموت فيها وحيداً في آخر المطاف.

لقد بلغت عائدات الثروة التي تدخل بيت مال المسلمين حداً غير معقولٍ في زمن عثمان، ولكنَّ الجوع كان منتشراً إلى حدٍّ غير معقولٍ بمحاذاة ذلك، فإذا فقدت الأمَّة السياسيين الذين (يقدِّرون أنفسهم بضعفة الناس) على منهج العدل الصارم كما يقول الإمام عليه السلام في نصٍّ آخر، فمن المحال أن تكون الزيادة في ثروات البلاد باباً من أبواب انتشار

الرفاهية الإقتصادية على مستوى عموم الناس، ومن يعتقد غير ذلك فلينظر إلى العراق اليوم على سبيل المثال، فالسياسيون أنفسهم يقولون إنَّ ثروة العراق فوق حدود التصوُّر، لكن أخبروني عن عدد الجائعين في العراق اليوم، وأخبروني عن عدد الذين لا يجدون خمس دولاراتٍ في جيوبهم لشراء شيءٍ ضروريٍّ أو كماليٍّ لأطفاله في العراق، هذا في حين أنَّ السياسيين لا يخجلون من المطالبة بزيادة رواتبهم التي بلغت عشرات الملايين للفرد الواحد منهم على شاشات التلفاز.

إنها مهزلة الديمقراطية أيها السادة عندما تكون ديمقراطيةً مشوَّهةً يديرها أفرادٌ لهم قلوبٌ قست فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً، مع أنهم يدَّعون التشيُّع للإمام عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام في الليل والنهار.

فإذا أبصر الناس العاقبة السيئة لاختيارهم السابق، وتُوِّجت في النهاية بكوارث اقتصاديةٍ وسياسيةٍ واجتماعيةٍ وأخلاقيةٍ لا تُحتمل، انتبهوا من غفلتهم انتباهةً مؤقَّتةً

وليست دائمةً مع الأسف، فعادوا إلى من لم ينتخبه سوى المنفيين إلى الربذات، لينقذهم من الكارثة، لا على أساس اختيار الله له طبعاً، بل على أساس اختيارهم هم، ليحتفظوا بالمبدأ الذي يحفظ لهم امتيازاتهم في المستقبل بعد النجاة من الكارثة والعودة إلى حياة الإنتهازية من جديد.

التوبة من الديمقراطية

يقول الإمام عليه السلام: «فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَ اَلنَّاسُ كَعُرْفِ اَلضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ اَلْحَسَنَانِ وَ شُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ اَلْغَنَمِ»

لكنَّ الإمام يعلم أنهم في محنةٍ ليس إلا، وأنَّ نفوسهم على حالها لم تتغيَّر، فهم يريدون أن ينهض الإمام بالمسؤولية الآن لأنَّ هناك مشاكل جمَّةً تحفُّ بالخلافة لا يستطيع أيُّ فردٍ من الإنتهازيين أن يقوم بها، فإذا نهض الإمام حاصروه، وطالبوه بما منحهم إياه عثمان، ولن يتنازلوا عن الإمتيازات الخاصَّة وما إلى ذلك على حساب جوع الشعب المسلم،

فحتى طلحة والزبير وهما ممن أيَّد علي بن أبي طالب بعد وفاة النبيّ مباشرةً،انقلبا عليه بعد ذلك، فهما يريدان علياً لكن بشرط أن يكون عثماناً نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وهما ينتخبان علياً لكن على أن لا يفارق نهج الديمقراطيين اللصوص في جميع القرارات التي يتخذها على صعيد إدارة الدولة.

إنهما ينتخبانه علياً تاجراً، وليس علياً صراطاً مستقيماً كما وصفه الله عزَّ وجلَّ في محكم الكتاب. ولهذا يقول الإمام: «فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَ مَرَقَتْ أُخْرَى وَ قَسَطَ آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلاَمَ اَللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ تِلْكَ اَلدَّارُ اَلْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي اَلْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ اَلْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . بَلَى وَ اَللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَ وَعَوْهَا وَلَكِنَّهُمْ حلِيَتِ اَلدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا» فليس كلُّ ما يعرفه الإنسان يتصرَّف بموجبه، لأنَّ بعض ما يعرفه لم يصل إلى مرتبةٍ عاليةٍ من الرسوخ، بحيث يصل إلى ذلك المستوى الذي سماه القرآن بعين اليقين، حيث يتيقَّن الإنسان بما لا يسمح بوجود أيِّ مقدارٍ من الريب بزوال الدنيا وبقاء الآخرة، هذا إن كان الإنسان يعمل بمنطلقاتٍ دينيةٍ

بحتة، أما لو كان مدفوعاً بمنطلقاتٍ إنسانيةٍ تمتُّ إلى نقاء الضمير الإنسانيّ، فإنه يحتاج إلى أن يمرَّ بمراحل صعبةٍ من الرياضة والمجاهدة كذلك، الأمر الذي لم يكن موجوداً عند هؤلاء الناكثين والقاسطين والمارقين، ولا هو موجودٌ عند قسمٍ كبيرٍ من الذين يتصدَّرون المشهد السياسيَّ في العراق اليوم.

الديمقراطية والإنسان الكامل

لقد ضاق الإمام عليٌّ ذرعاً بالحياة مع الراغبين بالظلم من جهةٍ، ومع الجماهير التي لم تتمتَّع بأفقٍ عالٍ من التفكير الذي يؤهِّلها لمعرفة ما هو في مصلحتها الحقيقية من جهةٍ ثانية، فهو الحاكم الوحيد في التأريخ الذي لم يجد لذَّةً للحكم في نفسه على الإطلاق، بل نظر إلى المنصب على أنه مسؤوليةٌ واقعيةٌ يتمنى الخلاص منها قبل أن يستلم الحكم وبعده، لكنَّ الواجب الإلهيّ يحتِّم عليه أن ينهض بهذه المسؤولية، وأن لا يتخلى عنها حتى لو لم يكن راغباً على المستوى الشخصيّ، فهو حاكمٌ منتفضٌ على نفسه وعلى ظلم التأريخ كلِّه من آدم حتى قيام الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف، وهو فقط من

يحقُّ له أن يقول: «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ اَلْحَبَّةَ وَ بَرَأَ اَلنَّسَمَةَ لَوْ لاَ حُضُورُ اَلْحَاضِرِ وَ قِيَامُ اَلْحُجَّةِ بِوُجُودِ اَلنَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اَللهُ عَلَى اَلْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ».

فمن كان هذا الشعور بالعدل يستحوذ على كلِّ كيانه مثل عليٍّ عليه السلام فهو الإنسان الكامل بطبيعة الحال، ومن كان ينافس ويتزلَّف من أجل الظفر بمنصبٍ سياسيٍّ يحقِّق من خلاله مبتغياته الشخصية مما لا يخرج عن دائرة المال والجاه والشعور بلذَّة السلطة، فهو ومن يساعده على بلوغ غايته يحملون بالتأكيد ذهنية التراجع والإنحطاط.

إنَّ منهج عليٍّ عليه السلام هو الضمانة الأكيدة لتقدُّم البشرية وتطوُّرها، بحيث يبلغ غايته في تحقيق اليوم الموعود ببسط العدل على الكرة الأرضية كلِّها، أما من يحمل في ذهنه مجموعةً من الأفكار التافهة التي يروِّج لها فلاسفة البراغماتية والميكيافيلية وما إلى

ذلك من فلسفات الظلم والجور والأنانية فإنه أمويٌّ حتى النخاع حتى وإن تشبَّث بشباك الإمام مقبِّلاً وباكياً في جميع المناسبات التي تخصُّ الإمام عليه السلام.

«من أحبَّ أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل الجنة التي وعدني ربي وهي جنة الخلد، فليتولَّ علياً من بعدي وذريته من بعده، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن يدخلوكم باب ضلالة» حديث نبويّ كنز العمال ج٦/ ١٥٥

«غدًا ترون أيامي، ويُكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلوِّ مكاني، وقيام غيري مقامي» الإمام عليّ عليه السلام، نهج البلاغة، الحكمة ١٤٩.

شخصية الإمام عليٍّ عليه السلام بوصفه وجهاً من وجوه الإعجاز

لو لم يكن لعليٍّ عليه السلام مقوِّمات إعجازٍ كمقوِّمات الإعجاز في كتاب الله عزَّ وجلَّ لما أصبح مجالاً واسعاً لاستثارة الحيرة والدهشة في عقول الأجيال إلى هذا الحدّ، فنحن الآن في القرن الواحد والعشرين، ومن المفترض أن تفقد كلُّ الشخصيات التأريخية شيئاً

من بريقها بفعل ما طرأ على ذهنيات البشر من التحوُّل والتطوُّر وانقلاب المعايير واختلاف الرؤى والفلسفات...إلخ. وإنه لأمرٌ طبيعيٌّ أن يحدث مثل هذا لو أنه حدث فعلاً، لكنه لم يحدث مطلقاً بشأن عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، كما لم يحدث بشأن القرآن الكريم بالضبط، تُرى ما هو السبب الحقيقيُّ في أن لا يحدث هذا، بل يحدث دائماً ما هو نقيضه تماماً، حتى أنَّ اهتمام الإنسانية جمعاء بتحديث المقاربات الفلسفية والمعرفية لهذه الشخصية الإلهية الفذَّة يزداد يوماً بعد آخر، وطبقاً لكلِّ المنهجيات المتعاطفة والمناوئة للأديان، فإنَّ شخصية عليٍّ تثبت جدارتها وأرجحيتها دوماً للخروج من امتحان الفكر والنقد بأفضل النتائج التي تؤهِّله لأن يكون الشخصية الأكثر خلوداً في تأريخ العالم.

أعتقد أنَّ الإجابة على هذا التساؤل من أعقد المسائل، ومن أبسطها في الوقت نفسه، فهو من أعقدها إذا أردنا أن ندرس شخصية الإمام عليٍّ عليه السلام دراسةً وضعيةً تأريخيةً تغفل وجود الجانب الإلهيّ في هذه الشخصية العجيبة، كما أنه من أبسطها إن اخترنا

الجانب الآخر من المسألة، وهو أن ندرس علياً عليه السلام من خلال هذا الجانب الإلهيّ بالذات، أي أن ندرسه من خلال القرآن، فإذا اعتقدنا أنَّ علياً كان هو القرآن الناطق كما صرَّح صادقاً بهذه الحقيقة عن نفسه، فإنَّ السبيل الأوفق لدراسة عليٍّ في هذه الحالة هو أن نطابق بين معارف القرآن ومعارفه، ثمَّ أن نطابق بين شخصيته وبين ما تضمَّنه هذا الكتاب الإلهيُّ المعجز من العلوم والتشريعات الباطنية والظاهرية، ثمَّ ننتقل خطوةً أخرى فنقول: إنَّ علياً عليه السلام هو القرآن وحسب.

فالخيار الشخصيّ إذن هو أن أجيء بكلِّ ما تحدَّث به المفسِّرون والعرفاء والحكماء الإلهيون وكلّ ما ورد على خيال الشعراء من الصور البيانية والجمالية التي ألهمهم إياها الإسلام، فأقول: إنها قيلت في تقييم شخصية عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام. ومن هذا المنطلق، فإني لا أوافق على ذلك الإتجاه الفكريّ الحديث في الإسلام الذي يوجِّه انتقاداً عنيفاً إلى منهجية المطابقة بين المفاهيم القرآنية في مستوياتها المثالية العليا التي وردت في القرآن وبين عليٍّ عليه السلام، فعليٌّ فعلاً هو النبأ العظيم، كما أنه فعلاً هو الصراط

المستقيم، بل إنَّ علياً فعلاً قديمٌ في علم الله، حادثٌ بدمه ولحمه وعظمه، كما هو الشأن في القرآن، القديم في علم الله، الحادث بحروفه وكلماته وتراكيبه اللغوية التي تتساوق مع مقتضيات عصر نزوله، من دون أن يفقد قابليته على الاستمرار في الفاعلية والتأثير، إذ هو الحلُّ الأمثل لكلِّ المشاكل التي تواجه البشرية على المستوى الحضاريّ والروحيّ بغضِّ النظر عن اختلاف الأقوام في اختلاف الزمان والمكان.

هذا هو الخيار الشخصيّ بالنسبة لي، ولا أفرضه على الجميع طبعاً، فإنَّ هناك من يشاء أن يدرس علياً عليه السلام دراسةً وضعيةً تأريخيةً، وأن يجرِّده من ذلك البعد الإلهيّ أثناء الدراسة، فله ذلك، لكنني واثقٌ من النتيجة، إذ إنَّ أحكامه واستنتاجاته سوف لا تكون إلا في جانب عليٍّ عليه السلام، كما أنها سوف لا تشير إلا إلى حقيقةٍ واضحة، وهي أنَّ الإنسان بالمطلق محتاجٌ إلى أن يستلهم هذه الشخصية بكلِّ أبعادها الروحية والمعنوية والمعرفية الخالدة، سواءٌ في عصره الذي عاش فيه، أم في العصور التي تلت ذلك، وسواءٌ أيضاً في عصر الحداثة أم في عصر ما بعد الحداثة.

المقاربات التأريخية لشخصية الإمام عليٍّ عليه السلام

لم يعد جديداً القول: إنَّ التأريخ الرسميّ الموجود للأمة الإسلامية هو تأريخٌ محرَّفٌ في أكثر تفاصيله التي تتعلَّق بتقييم التجارب السياسية في الإسلام، فليس من الصحيح أن يولي الباحث في التأريخ ثقته لتلك المدوَّنات التأريخية مهما ذاع صيتها وعلا شأنها في نظر الدارسين، لأنها تواريخ دوَّنها الملوك المتغلِّبون، حتى وإن لم يحدث ذلك بأقلامهم مباشرةً، فإنَّ المهمَّ هو أنهم أوجدوا الأجواء المناسبة لانتشار التزييف والتحريف والتدليس في كتابة التأريخ، سواءٌ كان ذلك عن طريق وعّاظ السلاطين على حدِّ تعبير الدكتور الورديّ، أو عن طريق البنية اللاشعورية العامَّة التي كوَّنت لدى أبناء تلك العصور عقلاً جمعياً عاماً منحازاً إلى الرؤية التأريخية التي تتبناها السلطة، بل ربما بلغ الأمر مستوىً أبعد من ذلك، إذ قد يحدث أن نجد مؤرِّخاً يتبنى موقفاً ضدَّ السلطة القائمة في زمانه، إلا أنه يعبِّر عن موقفٍ من التأريخ مشابهٍ للموقف التأريخيِّ الذي تتبناه

السلطة القائمة، مع أنها موضوع معارضته، ومع أنها لا تحظى عنده بأية درجةٍ من درجات التأييد على الإطلاق.

كان عليٌّ عليه السلام محرجاً بالنسبة للتأريخ الإسلاميّ حقاً، فعلى الرغم من أنَّ هناك رغبةً عارمةً لتغييب عليٍّ عن المواطن التي تشير إلى أنه الإنسان الكامل بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مباشرةً، وعلى الرغم من نجاح أرباب السلطة في تدوين كلِّ هذا الكمِّ الهائل من التزوير ضدَّ الحقائق الناصعة التي تؤكِّد أحقيته في قيادة الأمة قيادةً إلهيةً منصوصةً بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، على الرغم من كلِّ ذلك، فإنَّ التأريخ بقي سائراً في خطِّ عليٍّ عليه السلام، لكن ضمن منعرجاتٍ وعقباتٍ كثيرة، فبدلاً من أن نصل إلى عليٍّ عليه السلام بخطِّ سيرٍ واحد، علينا أن نصبر قليلاً، فنسلك طرقاً متعدِّدة، فتكون النقطة النهائية التي تشكِّل عنوان الغاية من التأريخ كلِّه هو عليّ بن أبي طالبٍ بالتأكيد.

إنَّ التأريخ الإسلاميّ المدوَّن يمتاز بخاصِّية التناقض في سردياته التأريخية المتعلِّقة بمختلف الشخصيات والحوادث، ومن شأن المقاربات الفلسفية والتأريخية المستندة إلى اعتماد آليات التفكيك والحفر الأركيولوجيّ العميق داخل بنية النصوص التأريخية ذاتها، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر عند المؤرِّخ الواحد أو عند المؤرِّخين المتعدِّدين، أن تكشف لنا حجم واتجاه هذا التناقض، ومن خلال متابعتي الخاصَّة للعديد من مدوَّنات التأريخ الإسلاميّ استخلصت بعض النتائج التي ينفعنا ذكرها في هذا المقام:

النتيجة الأولى: إنَّ التأريخ الإسلاميّ محكومٌ بعقدةٍ أصيب بها جميع المؤرِّخين تقريباً، وهي عقدة مسايرة النظام الحاكم في توجُّهاته العامَّة، فإن كان الحاكم يؤمن بنظرية الإمامة السنية، فعلى كلِّ مؤرِّخٍ في تلك الحقبة أن يكيِّف روايات التأريخ بما ينسجم مع هذه الرؤية، وليس من الضروريّ أن يحذف الحدث التأريخيّ كلَّه، بل المهمّ أن يجري بعض التعديلات والتحويرات على الرواية، بحيث تبدو كما لو أنها تؤدِّي إلى ذات النتائج التي تنسجم مع رؤية الحاكم.

النتيجة الثانية: إنَّ التأريخ الإسلاميّ المدوَّن في المصادر الرسمية ليست تأريخاً مفلسفاً على كلِّ حالٍ، أي إنَّ منهجية السرد التأريخيّ للحوادث لا تختلف في شيءٍ عن الطريقة العرفية الجارية بين الناس في نقل الحوادث اليومية أو التأريخية، ومن شأن هذه المنهجية الفجَّة أن تعرِّض الرواية التأريخية للزيادة أو النقص بحسب أهواء الرواة، وقد تسبَّبت هذه المنهجية في وجود قدرٍ عالٍ من التناقض في سرديات التأريخ مع الأسف.

ربما يُستثنى من هذه القاعدة بعض الأحداث التأريخية التي لها مدخليةٌ بمبحث الإمامة في الإسلام، فقد أدخلها المتكلِّمون في نطاق المحاكمات العقلية والفلسفية، ومع ذلك، فإنَّ تلك المنهجية العرفية في السرد التأريخيّ أسهمت في عملية استمرار الجدل بين المتكلِّمين حول صحَّة تلك الروايات أو عدم صحَّتها، ولو أنَّ المؤرِّخين أنفسهم أثناء تدوين التأريخ كانوا يتمتَّعون بأفقٍ عقليٍّ أو فلسفيٍّ في محاكمة الروايات، لجنَّبوا النخب الفكرية من المتكلِّمين والمفسِّرين والفقهاء وغيرهم مسألة الخلاف حول صحَّتها أو عدم صحَّتها من الأساس.

النتيجة الثالثة: ما قد بات معلوماً في الأوساط العلمية التي تهتمُّ بدراسة التأريخ، من أنَّ التأريخ الإسلاميّ إنما هو تأريخٌ تتمحور أحداثه حول السلاطين والوزراء وما إلى ذلك من الشخصيات التافهة، ولم يهتمَّ بكتابة تأريخ الشعوب إلا ما ورد بشكلٍ عرضيٍّ غير مقصود.

النتيجة الرابعة: لم يهتمَّ الشيعة بكتابة المدوَّنات التأريخية بشكلٍ كبير، ما عدا تأريخ المسعوديّ، وبعض المصادر التأريخية غير الهامَّة، وربما لعبت بعض العوامل دوراً في إعراض الشيعة عن تدوين التأريخ بشكلٍ واسع، منها:

أ-اكتفاؤهم بما يرد على لسان الأئمة من رواية الأحداث التأريخية، فتكون قد وجدت السرديات التأريخية في كتب الحديث وبعض التفاسير المتقدِّمة، وكتب علم الكلام .. إلخ.

ب- عامل التقية، فإنَّ التأريخ حقلٌ خطيرٌ كما هو معلوم، ويخضع لمراقبة السلطة بشكلٍ مركَّز، وبناءً عليه، فإنَّ علماء الشيعة ونخبهم الفكرية في الفترات المتقدِّمة كانوا يؤثرون الابتعاد عن تدوين تأريخهم الخاصّ في كتبٍ بارزةٍ كما هو شأن الطبريّ وابن الأثير ومن نسج على منوالهم من المؤرِّخين السابقين.

ت- ربما كتب بعض المؤرِّخين الشيعة تأريخاً عامّاً، إلا أنَّ انقلاب الظروف السياسية ضدَّ الشيعة في العديد من مراحل التأريخ حال دون وصول تلك المدوَّنات إلينا، والحقيقة أنَّ عدداً كبيراً من مؤلَّفات الشيعة تعرَّضت إلى التلف في التأريخ بسبب ذلك، وربما كان إضرام النار في بيت العلامة الطوسيّ مما تسبَّب في إحراق عددٍ هائلٍ من كتبه شاهداً بارزاً على ذلك.

إنَّ التأريخ الإسلاميّ لَيفقد معقوليته كلَّها واتزانه المنطقيّ بمجرَّد أن يتمَّ تغييب عليّ بن أبي طالبٍ من ساحة الحقّ المطلق الذي كان يدور معه حيثما دار، فلا يوجد حقٌّ يُعرف

بالرجال، بل يُعرف الرجال بالحقِّ كما قال هو عليه السلام، إلا في حالته الخاصَّة، حيث يُعرف الحقُّ به بوصفه إنساناً إلهياً كاملاً، ولم يشأ أحدٌ أن يعرفه بالحقِّ المزعوم عنده، المصاغ بحسب الرغبات والأهواء الشخصية، والمسبقات الذهنية الناتجة من مسيرة الانحراف في حياة الناس إلا ضلَّ عن الحقِّ وما اهتدى إليه بالمرَّة.

إنني أشجِّع المنهجيات الحديثة في دراسة التأريخ الإسلاميّ في الكثير من التفاصيل، ولا يخفى عليَّ ما تتضمَّنه الدراسات التي اتبعت هذه المنهجيات الحديثة من النتائج التي لا تنسجم مع ثوابت الإسلام، أعرف هذا جيِّداً من خلال السياحة الطويلة في التراث الحداثيّ ضمن أغلب فروعه واختصاصاته، ولكنني أدرك في المقابل أنَّ سبب الانحراف في تقرير عددٍ كبيرٍ من النتائج، ليس هو المنهج، بقدر ما هو المتبنى العقائديّ والإيديولوجيّ المسبق في أذهان المؤرِّخين، ولولا ذلك لأدَّت المناهج الحديثة ثمراتٍ طيبةً ويانعةً على صعيد استنباط عددٍ هائلٍ من الحقائق الواقعة في طريق تنقية التأريخ الإسلاميّ من خزعبلات الوعّاظ، وتوجُّهات الحكّام، وأكاذيب الرواة.

المطابقة التامة بين شخصية الرسول صلى الله عليه وآله **وشخصية عليّ** عليه السلام

إنَّ مصدر الاستغراب من هذه القضية، أعني المطابقة بين شخصية الرسول الأعظم وبين شخصية الإمام هو:

١- النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم اصطفاه الله للرسالة، فهو من هذه الجهة لا يقارن به أحدٌ من الناس على الإطلاق.

الجواب: إننا نقول: نعم، إنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال مخاطباً علياً: أخصمك بالنبوة، فلا نبوة بعدي. وقال: إنك مني كهارون من موسى إلا أنه لا نبيَّ بعدي.

ويمكن استخراج عددٍ من الدلالات الالتزامية والتضمنية من هذين الحديثين:

الدلالة الأولى: إننا نفهم المطابقة بين الشخصيتين من خلال هذين الحديثين بالذات، لأنَّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم : أخصمك بالنبوَّة، دالٌّ على أنَّ جهات المطابقة كلَّها متحققة، إلا جهةً واحدة، وهي النبوة، فإذا قلنا إنَّ النبوة ليست من مقولة الذاتيّ بالنسبة

للشخصية، بل من مقولة العرضيّ، بدليل أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه كان قبل أن يبلغ الأربعين عاماً ليس نبياً، ومع ذلك كانت شخصيته أكمل الشخصيات أبداً وسرمداً على الإطلاق، عرفنا أنَّ اتصاف محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة وعدم اتصاف عليٍّ عليه السلام بها لا يخدش مفهوم المطابقة بين الشخصيتين، هذا مع الاعتراف بأنَّ اتصاف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة يحتِّم على الإمام عليٍّ عليه السلام متابعته في كلِّ شيء، وعدم تقدُّم قوله على قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بطبيعة الحال.

الدلالة الثانية: نفهم من المطابقة بين الشخصيتين بحسب دلالة الحديثين نفسيهما مع وجود المائز العرضيّ وهو النبوة، إشارة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الواضحة للأمة بأنَّ عليها متابعة الإمام عليّ عليه السلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، بهذا المفهوم المتضمَّن في الحديثين، وهو أفضلية عليّ عليه السلام على كلِّ البشر في زمانه،

فضلاً عن الأزمنة السابقة واللاحقة، تماماً كما هو حال أفضلية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بلا تمييز.

الدلالة الثالثة: نحن نضمُّ الدلالتين السابقتين إلى دلالة عددٍ كبيرٍ من الأحاديث، وكلها يقضي بوجوب متابعة عليٍّ عليه السلام في كلِّ شيء، منها:

أ- قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن عصى علياً فقد عصاني» مستدرك الحاكم ج٣/ ١٢١.

ب- ومنها أيضاً: «من أحبَّ علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني». صحيح مسلم ج١/ كتاب الإيمان ٤٦.

ت- قوله صلى الله عليه وآله وسلم : "عليٌّ باب علمي ومبينٌّ من بعدي لأمتي ما أرسلت به، حبه إيمانٌ وبغضه نفاق". كنز العمال ج٦/ ١٥٦

إلى عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التي تعكس ذات المدلول في سياق بيان وجوب حقِّ الطاعة لعليٍّ عليه السلام على الأمة من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دون وجود فرقٍ بين مستويات الطاعة وحيثياتها وتفاصيلها، فهي واحدةٌ من جميع الجهات.

٢- يمكن انتزاع مفهومٍ يقضي بعدم اكتمال الدين في حال التسليم بالمطابقة، وهذا خلاف ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية من أنَّ الدين اكتمل بوفاة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وانتهاء عملية الوحي.

الجواب: كلا، لا ينتزع مثل هذا المفهوم بالضرورة، مع ملاحظة ما يلي:

أوَّلاً: إنَّ قضية المطابقة بين الشخصيتين، ولزوم متابعة الإمام عليه السلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، هي جزءٌ لا يتجزأ من القضية الأعمّ، وهي القضية المتعلِّقة باكتمال الدين، أي إنَّ الدين اكتمل بأن قام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغ

الرسالة التي تقضي بمتابعة الإمام من بعده بحسب قاعدة المطابقة، الأمر الذي يعني أنَّ الدين لا يكون كاملاً إلا مع التسليم بمفهوم المطابقة مع الاعتراف بمائز النبوة، فلا لزوم للمحذور المذكور في البين.

ثانياً: إنَّ المطابقة بين شخصيةٍ ما وشخصيةٍ أخرى، لا يستلزم أن ينسخ أحدهما شريعة الآخر، ناهيك عن كون هذا المفهوم بلا موضوعٍ في المقام، بسبب وجود المائز النبويّ بين الشخصيتين، بل يمكن أن يكون أحدهما غير النبيّ شارحاً ومبيناً لعلم الآخر النبيّ وسنته بتنصيبٍ من الله بعنوان الإمامة، لكنَّ شرحه وبيانه يتضمن معنى المطابقة لمراد النبيّ، وليس هو كأيِّ شرحٍ مرتجلٍ آخر. وهذا هو المتحصَّل من قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «عليٌّ باب علمي ومبيِّنٌ من بعدي لأمتي ما أرسلت به، حبه إيمانٌ، وبغضه نفاق».

٣- إنَّ إجراء المطابقة، حتى مع الاعتراف بمائز النبوة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فيكون النبيّ متقدماً على الإمام عليٍّ عليه السلام من هذه الجهة، يستلزم التسليم بمحذورٍ خطيرٍ جداً، وهو أن يكون الإمام عليٌّ، وكذا الأئمة من ولده مع ثبوت الأدلة على ذلك، أفضل بكثيرٍ من الأنبياء السابقين، لأنكم أشرتم بالبرهان المتقدِّم على عرضية النبوة بالإضافة إلى ما هو ذاتيٌّ في شخصية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا استنتاجٌ خطيرٌ لا نجد الضمير الدينيّ يتفق معكم حوله على أية حال.

الجواب:

أوَّلاً: نحن فعلاً نقول ذلك، ولا نسمِّي مثل هذه النتيجة محذوراً، لأنه من عقائدنا التي قام عليها البرهان، فإذا كانت شخصية الإمام مطابقةً لشخصية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع الاعتراف بمائز النبوة بحسب ما قام عليه الدليل ضمن البيان المتقدِّم، فإنَّ النتيجة المنطقية لذلك هي أن يكون عليٌّ عليه السلام أفضل من جميع الأنبياء السابقين،

بمن فيهم الأنبياء أولو العزم عليهم السلام طبعاً، مع الاعتراف لهم بوجود مائز النبوة أيضاً، إلا أنَّ الإمامة التي تقوم على أساس قيادة الأمة وبيان مضمون الرسالة المحمدية هي أفضل بما لا يقاس من نبوة الأنبياء السابقين كذلك، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم المرويّ عن طريق الفريقين: «علماء أمتي خيرٌ من أنبياء بني إسرائيل».

والمفهوم من هذا الحديث معنيان:

المعنى الأوَّل: هو المعنى المنطبق على العلماء كافَّةً، الذين بلغوا درجاتٍ عليا من فهم الشريعة والاجتهاد فيها.

المعنى الثاني: هو المعنى المنطبق على المعصومين من آل البيت عليهم السلام على وجه التحديد.

وعلى كلا المعنيين، يكون تفضيل غير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء السابقين مستساغاً ومقبولاً، فلا يبقى معه مجالٌ للدهشة أو الاستغراب.

ثانياً: إننا نستغرب من عدم موافقة الضمير الدينيّ لأتباع المذاهب الإسلامية الأخرى على مثل هذه النتيجة مادامت مبرهناً عليها نقلاً وعقلاً كما اتضح من البيان المتقدِّم.

فإنَّ المفروض هو أن تكون العقيدة الدينية -بما هي عقيدةٌ مطابقةٌ لمقتضى الأدلة الشرعية والعقلية- هي الشيء الأهمّ في حياة المرء، وليست النتائج التي لا يساعد الدليل الشرعيّ والعقليّ على إثبات حقانيتها وصدقها، فهي إنما قامت على أساس مسبقاتٍ ذهنيةٍ موروثةٍ من التأريخ، من دون أن تتمَّ مراجعتها من الناحية العلمية والنقدية والموضوعية، فما قام عليه الدليل شرعاً وعقلاً هو ما يوفِّر الحجة والمعذّرية للمرء أمام الله، وليس ما ورثه من عقائد لم تصمد أمام الدليل والبرهان.